د . يسري خميس

الادب والسياسة مرة اخرى

(ان امن اسرائيل ، لا يمكن ان يكون الا ضمانا عسكريا)

لم يصدر هذا التصريح من وزير حربية المانيا الغربية ، ولو انه صدر منه لكان مبررا ومفهوما ـ في حدود المصالح الاقتصادية المشتركة بين الدولتين . فعندما يقول (شوتز) عمدة برلين الغربية « يجب على الغرب ، وعلى المانيا الغربية في المقام الاول ، ان يتضامن تضامنا كاملا مع اسرائيل في هذه المرحلة الدقيقة » يكون الكلام مفهوما ـ فرجل السياسة داخل جهاز سياسي معين مرتبط ارتباطا اقتصاديا وعسكريا وثيقا بدولة اخرى ، يتحتم عليه كرجل سياسة مخلص لنظامه ويشارك في صنع النظام ، ان يرى الاشياء من وجهة نظر الدولة . ومن الطبيعي ان تتفاوض المانيا الغربية في الشهر الماضي مع ايران لبناء مصنع للدبابات ينتج الف دبابة المانية ، مقابل تسهيلات نفطية ـ ولا نريد هنا ان نتساءل عن سر هذا التكديس المبالغ فيه من الاسلحة في ايران ، وضد صدر من سوف توجه ـ لن نتساءل ، لاننا نعرف جيدا .

لقد صدر هذا التصريح الانف الذكر الذي يقول « ان أمن اسرائيل ، لا يمكن ان يكون الا ضمانا عسكريا » في بيان مشترك في اواخر ديسمبر ١٩٧٣ بمناسبة انعقاد مؤتمر سلام الشرق الاوسط (المزعوم) في جنيف من السادة الكتاب الثلاثة هاينرش بيل ـ الحائز على جائزة نوبل في الاداب ، وجنتر جراس ، وزيجفريد لينتس . واعقبه بشكل تفصيلي الشاعر الروائي المسرحي جنتر جراس في مقال ننقله هنا . لقد اثار الكتاب الثلاثة مشكلة تدعو للتساؤل والمناقشة ـ وهي مشكلة العلاقة بين السياسة والادب .

نحن نرى ان الكاتب ـ بشكل عام ـ لا يمكن ان يكون « مع » المؤسسات الاجتماعية القائمة ، مهما كانت طبيعة هذه المؤسسات. فكون الكاتب في « حالة تصالح » معها ، يعمل على عرقلة تطورها وحركتها ـ فموقف الكاتب « الضد » يساعد في دفع الحركة الى امام ، الى افضل . كما ان موقف الكاتب المنسجم مع الواقع، في جوهره موقف لا اخلاقي . انه في حالة معارضة مستمرة ، وعليه تحمل مسئولية ذلك . حتى لو كان الكاتب متفقا مبدئيا على الخط العام للدولة ، فان مسؤوليته تدفعه باستمرار لالقاء الضوء على ما هو خطأ فيما هو قائم ، فوعيه الشامل (اوالذي يحاول ان يكون شاملا) للمشكلة الانسانية ككل ، يبعده عن الفهم الجزئي للواقع ، فالفكر والشعر .. الخ محاولة صعبة لفهم الكلي العام ـ بهدف تغييره ـ وليس الجزئي الخاص . حتى في حالة تعرض الكاتب لجزئيات تفضيلية فهو يهدف دائما لرؤية اشمل وابعد . الشعر محاولة للغوص في عمق الاحداث وما يحركها ، وليس مناقشة سهلة او تعليقا على ما يحدث . الشعر شامل ودائم، اما السياسة فجزئية ومرحلية . الجذر وليس الورقة هو ما يجب على الكاتب ان يهتم به .

يمكن ، بل من الافضل ، بل يجب على الكاتب ان تكون له وجهة نظر سياسية . افضل بكثير ، ان يشارك مشاركة فعلية وبشكل مباشر في العملية السياسية . واية محاولة من جهة الكاتب للتدخل في العملية السياسية اليومية ، محاولة انسانية وعظيمة ومرغوبة ـ بشرط : الا يقع في الفهم المثالي للواقع ، والا يضيع في الجزئيات ، ويفقد القدرة على الرؤية الكلية .

فعندما يتحدث جنتر جراس عن (الجريمة التي ارتكبها الالمان في ابادة ستة ملايين يهودي ـ وان كل فرد في المانيا محمل بالجريمة ـ وانه دون الذنب الالماني لما وجدت اسرائيل) يقع حقيقة في فخ الفهم المثالي ، ويرى الاشياء والواقع وعذاب الملايين من البشر ، من وجهة نظر واحدة .

انه يرى وجها واحدا فقط من العملة ، ولا يرهق نفسه في قلب العملة على الوجه الاخر ـ حتى يمكنه ان يرى الجريمة في تكاملها . انه يحصي عدد القتلى ، ويدين من بيده المسدس ، لكنه لم يتساءل عن : من الذي وضع المسدس في يده .

حسنا ، لقد ارتكب النظام النازي جرائم بشعة وكثيرة لن ينساها التاريخ البشري ، منها جريمة ابادة ستة ملايين يهودي ـ ونحن ضد ذلك ، لاقصى حد ممكن . لكنه يقول : الجريمة التي ارتكبها (الالمان) !! اي المان بالتحديد ؟ بائعة الامشاط في المحل التجاري الضخم ؟ ام الموظف الصغير في البنك الالماني الشهير ؟ لم يكن (الالمان) وراء ما حدث ويحدث ، بل كانت طبيعة النظام الراسمالي في يد ديكتاتورية عسكرية ، ابان ازمة من ازماته ـ ولا داعي لان اسمي له اسماء الشركات ـ والبنوك التي موّلت الجريمة ، فهو اعلم مني بذلك .

ان الحديث عن قتل ٦٠٠،٠٠٠،٠ انسان يجب ان يكون اكثر تحديدا ـ بل ان الحديث عن قتل ستة ملايين فار ، يجب ان يكون محددا .

ثم يشير بعد ذلك مشكلة انسانية استوقفتني : مشكلة الحلم

الانساني . (بداية تحقق الحلم باسرائيل العظمى) . حق الشعوب في ان تحلم بعالم عادل ، وحق الانسان في ان يحلم بعالم اكثر انسانية ، وبأرض ينتمي اليها وتنتمي اليه ـ يعيش فوقها ويموت فوقها . هذا الحق يبيحه لجماعة ، ويسلبه ببساطة غريبة وسذاجة لا تحتمل عن جماعة اخرى . نفس الخطأ : الرؤية المثالية لوجهة واحدة من عملة الواقع .

ثم يحدثنا عن لعبة النفط ويقول (ان الذي عجز العرب عن تحقيقه في ساحة الحرب ، قد حققوه عن طريق منع النفط) واتساءل : ماذا حقق العرب عن طريق منع النفط (المزعوم) ؟ واتساءل مرة اخرى : متى منع النفط ؟ ان النفط يتدفق وكان متدفقا وما زال متدفقا ـ وقد رأينا نتيجة هذه اللعبة ورأينا من الذي استفاد منها ، وكيف تحولت من فكرة سياسية مثالية ، الى فكرة عملية جدا لرفع اسعار النفط ومنتجاته . وقد وضع جراس يده على جزء من العملية ، لكنه لم يصل بالتحليل لنهايته . ونقول له مرة اخرى: ان العرب لم يمنعوا النفط . وان النفط العربي في يد من يملك غالبية الاسهم : الشركات الاميريكية في المقام الاول بالاضافة للعظام الملقاة من الاسهم الباقية للبورجوازية العربية . لقد وقع جراس في نفس الخطأ الذي وقع فيه اغلب الحكام العرب والانظمة العربية والكثير من افراد الشعب المضلل به .

لقد كان جنتر جراس في بيانه الخاص ملتزما تجاه حزبه السياسي الحاكم ، بصفته عضوا نشطا فيه ، وصديقا شخصيا لفيلي براندت ، لكنه تخلى ببساطة شديدة ـ اعتقد انها سوف تدينه، ليس امامنا فقط ككتاب عرب ، ولكن امام زملائه الكتاب الالمان الذين لم يوقعوا على بيان الثلاثة ـ تخلى ببساطة عن التزامه الحقيقي كشاعر ، وكان يجب عليه الوقوف باستمرار في صف حرية الانسان .

المانيا الغربية — يسري خميس

* * *

اسرائيل وأنا (*)

بقلم : جنتر جراس

تحضرني وتشغل تفكيري عند نهاية عام ١٩٧٣ ، حرب الشرق الاوسط الاخيرة ، ومستقبل دولة اسرائيل . والجدير بالذكر هنا انني قد زرت اسرائيل ثلاث مرات ، بينما لم ازر اية دولة عربية.

لم تخل كتاباتي من اثر تلك الجريمة التي ارتكبها الالمان ـ جريمة ابادة ٦ ملايين يهودي . وعندما اتحدث عن الالمان فانني اقصد الالمان في المانيا الغربية ، حيث يحاولون بصعوبة عدم النسيان. والالمان في النمسا ، التي تستفيد من وضعها السياسي المنعزل، والالمان في المانيا الشرقية ، حيث تمنعهم الدولة من المشاركة في حمل الذنب الالماني المشترك .

تحدثت في اسرائيل مع اصدقاء كثيرين واستمعت لآراء متضاربة. كم يعانون من اضطرارهم لان يكونوا قوة محتلة ، هم المضطهدين منذ قرون . كيف يتأكد لهم من خلال انتصاراتهم العسكرية ، ضرورة الامان العسكري . كيف ابتدأ الحلم باسرائيل العظمى في التحقق، وها هو الان يكتسب ارضية واقعية ـ مرتبطا بالامن العسكري . كيف يختلف منطق اسرائيل السياسي عن طريقة التفكير العربية ، التي يمكن تسميتها بشكل متعجل طريقة عاطفية غير عقلانية .

وفي الخريف ابتدأت الحرب . اجلس واكتب واشاهد التليفزيون . ادخن وارسم واكتب وادخن ،وارى وجهات النظر المختلفة. وارى كيف يضيع (الحق العادل) . استمع لتعليقات مختلفة ،واتعلم ان القوى العظمى تكتسب في المقام الاول خبرات عسكرية جديدة ، ايضا من خلال تلك الحرب ، التي لولا اسلحتها لاختلف حجمها، بل لكانت غير ممكنة التحقق . اتلقى مكالمات تليفونية وخطابات تسألني عن رأيي ، ويطالبني اصدقاء بان أقف مع الاسرائيليين بصلابة ،مثلما وقفت معهم بصراحة بعد حرب الايام الستة . الاصدقاء في اسرائيل لا يفهمون موقفي . انهم يفتقدون كلمة واضحة صريحة ومنحازة. انهم يحسون انهم قد تركوا ، قد غدر بهم . وباندهاش يعقدون مقارنات غير سليمة . لكن التصرفات الخاطئة من الناحيتين لا تبيح فرصة للانحياز . ليس العرب وحدهم ، لكن دولة اسرائيل (الحكومة والمعارضة) ايضا قد اخطأت في بعض التصرفات (وفي الحقيقة فان هذا شيء طبيعي ومخيف . فكاية دولة اخرى، فان اسرائيل ايضا لها الحق في ان تتورط في اخطاء سياسية).

فمن ناحية ، لم تبد الدول العربية بعد حرب الايام الستة اية رغبة في عقد مفاوضات للسلام مع اسرائيل ، ولم تكن مستعدة للاعتراف بوجود اسرائيل ، او للدخول في مفاوضات تحت شروط غير مقبولة (الانسحاب من الاراضي المحتلة كشرط اساسي للمفاوضات). ومن الناحية الاخرى ، فان اسرائيل تلعب دورا استعراضيا في نشاطها المتزايد في الاستيطان بالمناطق المحتلة : شراء الاراضي ، وضع اسس قرى للدفاع ، معاملة السكان العرب في المناطق المحتلة معاملة المستعمر .

وكما أعطت مصر عام ١٩٦٧ ـ بهجومها العسكري على مناطق الحدود في شبه جزيرة سيناء ـ الفرصة لاسرائيل ، ان تبدأ بحرب الايام الستة ، بحجة الدفاع عن النفس . أعطت اسرائيل ـ بنشاطها العنيف في المناطق المحتلة ـ الفرصة للدول العربية للهجوم هذه المرة .

وحتى الحرب الاخيرة ، قد انتهت لصالح اسرائيل ، بعد اجتيازها مواقف حرجة ، وبعد نصف نصر عسكري . بينما اصبح موقف الدول العربية السياسي اكثر قوة ، والذي عجزوا عن تحقيقه في ساحة الحرب ، قد حقق عن طريق منع النفط .

كانت هناك قوى اقتصادية عالمية ، لا تفكر الا في الربح دون اية رقابة ديموقراطية . وقد كانت تعمل تلك القوى على تقوية الضغط العربي من خلال موقفها كقوى رأسمالية غربية . لقد كان الموقف الاول متوقعا ، اما الموقف الثاني فهو يضع الديموقراطية البرلمانية موضع سؤال . لا يمكن لاحد ان يتحدث عن « الغرب الحر » عندما تتحدد سياسته عن طريق المؤسسات الصناعية الكبيرة.

ومع ذلك اتساءل : ما هو موقفي الان ؟ هل سأظل مع جبهة ام مع اخرى ؟

وهنا اعود لما قاله فيلي براندت « بان وجود اسرائيل لا يمكن ضمانه الا عن طريق معاهدة للسلم » هذا القول السليم والذي لا

(*) نشر هذا المقال في جريدة Sueddeutsche zeitung الالمانية العدد رقم ٣٠١ بتاريخ ٣١ ديسمبر ١٩٧٣ .

بديل له . انني اوافق تماما على ان ترد اسرائيل ،بعد عقد معاهدة السلام ، المناطق المحتلة .

لكن ، ماذا سوف يحدث لو ان تلك المناطق المحتلة استخدمت بعد استردادها كمواقع للهجوم ؟

هذا هو السؤال الذي يتردد في اسرائيل . فقليلا ما نسمع بان الدول العربية قد تخلت عن هدف استرجاع وغزو فلسطين ،وسحق دولة اسرائيل .

لذلك يجب ان تظل المناطق المسترجعة مناطق محايدة ، اذا كانت معاهدة السلام ترغب في ضمان وجود اسرائيل .

لكن ، ما الذي يضمن لدولة اسرائيل ـ رغم مناطق الحياد غير المسلحة ـ ومع وجود الصواريخ متوسطة المدى ، عدم توقع ضربة قاضية مفاجئة ؟ وماذا يبقى لها سوى الاعتراضات في مبنى الامم المتحدة ؟

سوف ينتهي ذلك الخوف فقط ، عندما تتعهد القوى العظمى مع الدول الاوروبية الغربية في معاهدة السلام بحماية الحدود الجديدة حماية عسكرية . واقول : والمانيا الغربية معهم ، لانه لولا الذنب الالماني لما وجدت دولة اسرائيل . وعندما نقول ، ان علاقتنا باسرائيل هي علاقة طبيعية بشكل او باخر ، فان تطورنا التاريخي لا يسمح لالمانيا الغربية وحكومتها عند بدء محادثات السلام الا ان تكون في صف ضمان أمن اسرائيل .

ان غزو تشيكوسلوفاكيا بقوات حلف وارسو ، والانقلاب العسكري الفاشي في اليونان ، ومقابله في شيلي ، قد علمنا ان الاعتراضات عديمة الاثر ، وان هز الرأس على ما يحدث ، شيء يدعو للضحك امام ما يسمى « بالحقائق السياسية القائمة » .

ان القضاء على دولة اسرائيل ـ رغم معاهدة السلام ـ سوف يثير مثل تلك الاعتراضات الاخلاقية ، ان لم تكن هناك دول اخرى (وبينها المانيا الغربية للاسباب السابقة الذكر) مستعدة بشكل مباشر لحماية اسرائيل عسكريا .

اقصد ، ان فكرة القضاء على اسرائيل تظل قائمة ، دون ضمان عسكري لمعاهدة السلام ـ قائمة اكثر من اي وقت مضى ـ ويصير كل فرد في المانيا محملا بالجريمة التي تمتد من محاكمات اشفتس حتى وقتنا هذا .

ان حقيقة موقف الدول العربية ، في انها غير مستعدة لان تضع حدا للجرائم غير الشريفة التي يقوم بها الارهابيون الفلسطينيون ، تؤكد شكوكي .

نحن ـ ولا استثني نفسي ـ قد اصبحنا نتأثر بالهموم القريبة واليومية : النمو السكاني ، ازدياد البطالة ، التضخم المالي، ارتفاع الاسعار ، انقطاع النفط ونتائجه غير المرئية ، كل ذلك يجعلنا نتوقع منا تجاه اسرائيل موقفا مختلفا .

ان الحياد الذي تكون اسرائيل ثمنا له ، ويخضع للضغط العربي ، حياد لا معنى له ، حياد يسلبنا كرامتنا . ان كلمة واحدة لصالح اسرائيل ، اصبحت تهددنا او تهدد بعض الافراد بالخطر ، وربما بالارهاب . لم تعد هناك قيم تحكم ، لكنه الخوف الذي يحكم . انني اخاف ان يكون المنطق قد اصبح عبثا في عالم السياسة .

ان توقف القتال في فيتنام الذي قام كيسنجر ولو دوك ثو بجهد كبير فيه يعتبر انتصارا للضمير البشري، لكن الاطراف جميعها تضحك الان من النتيجة . فالحرب ما زالت مستمرة .

عام للرغبات الخطرة والنتائج الشريرة . متداخل في تناقضاته. انهيار البرلمانية الغربية ، والغرور الرأسمالي . جمود الشيوعية في الشرق ، وعجزها عن الاصلاح ، واستعدادها في كل وقت ان ترى في الارهاب الستاليني انقاذا لها . اليسار مختلف ، واليمين يزداد صلابة . والكنيسة منقسمة في اغمائها السياسي .

اكثر من مئات الالاف الجوعى في الحبشة . اكثر من ١٥ الف قتيل في شيلي ، حوالي ٢٠ الف قتيل في الشرق الاوسط ، عدد الموتى في فيتنام وكمبوديا لم يعد يحصيه احد . الارهاب في اليونان . الارهاب في تشيكوسلوفاكيا .

اتساءل : اين هو الايجابي ؟

ربما : الارباح الضخمة التي تبررها ازمة الطاقة ؟

او : ارتفاع اسعار النحاس بعد اسقاط حكم الليندي وقتله ؟

او : التقدم العلمي . شيء ما نجح في التحليق في الفضاء

أو ربما لا اكثر من ذلك : نقص السيارات ، وانخفاض عدد القتلى في الحوادث .

كتب عقائدية وفكرية

من منشورات دار الآداب

الثقافة والثورة	محمود امين العالم	دفاعا عن الثورية	ريجي دوبريه
ماركيوز او فلسفة الطريق المسدود	محمود امين العالم	القوة السوداء	ستوكلي كارمايكل
ادب المقاومة في فلسطين المحتلة	غسان كنفاني	الوحدة العربية آتية	ارنولد توينبي
هيا الى الثورة	جيري روبين	التحدي الصهيوني	جاك دومال ـ ماري لوروا
النشاط الجنسي وصراع الطبقات	رايموت رايش	جمال عبدالناصر من حصار الفالوجة	« «
الوجه الاخر لامريكا	ميكائيل هارنفتون	الارهابيون والفدائيون	رولان غوشيه
حرب المقاومة الشعبية	الجنرال جياب	اقتراح دولة فلسطين	احمد بهاءالدين
قصة المقاومة الفيتنامية	الجنرال جياب	الكواكبي المفكر الثائر	نوربير تابييرو
الكفاح المسلح	دوغلاس هايد	عاجلا او آجلا ستزول اسرائيل	ترجمة ريمون نشاطي
ثورة في الثورة	ريجي دوبريه		

دار الآداب ص ب ٤١٢٣ بيروت